من مظاهر الإعجاز القرآني

تحليل لبعض عناصر المنظومة العقائدية في ضوء الدراسة المقارنة للأديان والأنثروبولوجيا

(القسم الأول)

د. رشيد ميموني*

لعب الدّين دوراً جوهرياً منذ بروز الإنسان على سطح المعمورة، إذ يعدّ الظاهرة الأكثر تجلياً في تاريخ الإنسانية حيث توجد كما قال "برغسون": «شعوب بدون فلسفة أو كتابة أو حتى فنون فضلاً عن العلوم ولكن لا توجد شعوب بدون دين». يعدّ الدّين بحق "الرباط الأساسي للإنسانية" كما قال "بوكارد" (Buckhard). هناك علاقة تأثير وتأثر بين الدّين ومجالات الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، كما يتّسم بالتنوع المذهل في أشكاله عبر التاريخ من حيث العقائد والشعائر والتشريعات ومظاهره الثقافية والاجتماعية وهو عنصر أساسي في نشأة الحضارات. نظراً لكلّ هذه العوامل، فإنّ الدّين كان محلّ دراسة وجدال بين العديد من التخصصات يمكن تصنيفها إلى فئتين كبيرتين:

1. التخصّصات النابعة من صميم ديانة معيّنة تهدف إلى تبيان العقائد واستنباط منهجي للأحكام المختلفة كالتفسير وعلم الحديث وعلم أصول الدّين والفقه ثم علم الكلام أو اللاهوت في المسيحيّة وما أفرزه التطور الداخلي للديانة مثل الدّراسات الصوفية... إلخ.

---

* أستاذ محاضر في علم الإجتماع، جامعة الجزائر

2. التخصّصات الخارجة عن إطار الدّيانة والتي تسعى وفق منطلقاتها المعرفية ومناهجها إلى تحليل الأبعاد المختلفة للدّين وفهمها. قد تكون تلك التخصصات قديمة مثل التاريخ والفلسفة والأخلاق وقد تكون حديثة العهد نسبيا ونذكر بالخصوص العلوم الاجتماعية التي برزت في أواخر القرن التاسع عشر عموما وترتب عن اختلاف الرؤى والأهداف والمنهج اختلاف في النتائج المتوصل إليها بين المنظورين الدّاخلي والخارجي.

I. العقائد الوثنية بين منظور القرآن وبعض العلوم الاجتماعية

رغم تجذُّر اختلاف المنظور بين النصوص الدينية والعلوم المنبثقة عنها والتخصصات التي تعنى بدراسة مظاهر الحياة الدينية، هناك مواضيع ذات الاهتمام المشترك بينهما يمكن للباحث أن يتعرض إليها بالدراسة مع احترام أهداف ومنهج كل تخصص قصد التقرّب من الحقائق العلميّة، وفي هذا السّياق ننوي في هذا البحث عرض مجموعة من الأدلّة تثبت الإعجاز القرآني في مجال جديد للبحث، يتناول بالتحليل بعض عناصر المنظومة العقائدية الوثنية كما يعرضها القرآن في ضوء نتائج بعض العلوم الاجتماعية. تمت مقاربتنا للموضوع من خلال المقارنة بين كيفيّة تناول القرآن لمظاهر الشرك في الديانات الوثنية في البيئة العربية وخارجها في فترات زمنية مختلفة وحضارات متنوعة ورد ذكرها بالخصوص في القصص القرآني من جهة، وآخر ما توصلت إليه بعض الدراسات في العلوم الاجتماعية التي تعنى بدراسة الأديان ومظاهرها المختلفة ماضيا وحاضرا على وجه البسيطة، كعلم الأديان المقارنة والأنثروبولوجيا من جهة أخرى.

تعدّ مسألة ترسيخ عقيدة التوحيد المحور الرئيسي في القرآن الذي يعرض من خلال عملية جدلية مختلف الأدلة المنطقية التي تدعم أطروحة التوحيد ويدحض بالمقابل كل حجج عقيدة الشرك.

1. فرضيات البحث المقترحة

وفي ضوء المعلومات التي توصلت إليها أبحاث الإنسان اليوم حول الدّيانات المدوّنة في الكتب والمجلات والموسوعات المتخصصة يمكن لنا صياغة مجموعة من فرضيات البحث.

فالفرضية الأولى تفيد أنّ طريقة عرض القرآن لمظاهر الوثنية ومنهج التصدي لها تبيّن إحاطة مؤلّفه بكل مظاهر الدّيانات الوثنية عبر المعمورة، علماً أنّه لو افترضنا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم كان مؤلّف القرآن لما استطاع ولو كان عبقرياً، نظراً لقلة المعلومات المتوفرة حول الأديان، أن يتجاوز معرفياً حدود البيئة الوثنية التي نشأ فيها _أي جزيرة العرب_ أو على الأكثر تقدير حدود الحضارات المعروفة آنذاك مثل الروم أو الفرس أو الهند، في حين أنّ القرآن يبرز ويجادل ويحاجج مظاهر وثنية لحضارات تقع خارج حدود العالم المعروف آنذاك مثل حضارة "الإنكا" (Incas) في أمريكا الجنوبية أو الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، علماً أنّه لم يتم اكتشاف تلك الحضارات إلاّ بعد القرن 15م.

أمّا الفرضية الثانية التي يمكن تقديمها للاختبار فتتمثل في كون مؤلّف القرآن يعرف جيّداً نفسيّة الإنسان وقوانين وطرق وعوامل تبنّي وترسيخ العقيدة الوثنية لديه والتي تعتبر في المنظور القرآني تحريفاً عقائدياً أي انتقالا من التوحيد إلى الشرك وطمساً للفطرة.

الفرضية الثالثة المنبثقة عن الفرضيتين السابقتين فتتمثل في أنّ مؤلف القرآن بحكم إلمامه بأشكال الدّيانات الوثنية وبالميكانيزمات النفسيّة والاجتماعية المؤدّية إلى الابتعاد عن دين الفطرة، يقوم إلى جانب تقويض أسس العقيدة الوثنية السائدة في الحجاز بعمليّة تفكيك منظمة شاملة لكل العقائد الوثنية عبر العالم من خلال دحض مسلّماتها وإبطال منطلقاتها وتسفيه حججها الواهية وإظهار التناقضات في منطقها الدّاخلي.

لم يكن بمقدور أي إنسان قبل ذلك الوقت أن يصوغ مثل تلك الفرضيات حول القرآن أو أن يقدّم مجرّد اقتراح في هذا الاتّجاه وذلك

لسبب بسيط وهو محدودية الاكتشافات الجغرافية المتعلّقة بالحضارات إلى جانب غياب المعلومات الضرورية حول الدّيانات السابقة ـ أو حتى الحاضرة ـ لعدم بلورة الحقول المعرفية المرتبطة بدراسة الأديان.

أمّا اليوم فيمكن رسم خريطة شبه شاملة وموضوعية لتموقع الأديان في العالم، وجزئية بالنسبة للأديان السابقة، إضافة إلى ذلك فإنّ أهم نتيجة توصلت إليها دراسة مقارنة الأديان الحديثة والتي تسمح بفهم منهجية القرآن، هي التي تتمثل في التوصل إلى تجميع العقائد المبعثرة ضمن بضع أصناف أساسية والتي تمثل المصفوفة الأساسية (la matrice de base) لكلّ الأديان.

إنّ هذه الخاصية غير المعروفة (وغير المتوقّعة) سابقاً نظراً للتنوع المذهل وغموض العقائد والطقوس الدّينية تسمح لنا الآن بصياغة فرضية رابعة تفيد أنّ هناك توافقاً معجزاً بين توصل المعارف العلميّة إلى وضع "مصفوفة قاعدية" للأديان تسمح بتلخيص وتوضيح وتصنيف كل العقائد خاصة الوثنية منها من جهة، ومنهجية الدّحض القرآني المدعّمة بأدلّة دامغة والموجّهة لأصناف الآلهة بدلا من الآلهة بعينها من جهة أخرى، الأمر الذي يفسر إحدى المظاهر المميّزة للقرآن المتمثل في الإحاطة بالظاهرة مع الإيجاز الشديد.

2- مراحل انجلاء الإعجاز القرآني

أرسى القرآن خطة منهجية متكاملة الجوانب يعرضها من خلال مخاطبته لعقل الإنسان ووجدانه. تتجلّى هذه الخطة من خلال الطريقة المميّزة والفريدة من نوعها بين الأديان والفلسفات الكونية التي تطرّق فيها القرآن إلى المحاور الرئيسية الثلاثة الموجودة في قلب المنظومة العقائدية لكل دين، وهي الإله المقدّس، الإنسان والكون والعلاقة بينهم.

أمّا بالنسبة للإله فإنّ القرآن بيّن طبيعة ذات الخالق وأفعاله من خلال ذكر "الأسماء والصفات" وعلى رأسها خلق الكون وكل الكائنات بما فيها الإنسان وتدبير شؤون العالم إلى جانب سرد أخبار عن عالم الغيب كالملائكة ومصير الإنسان بعد الموت وأحوال الجنّة والنار... إلخ.

أمّا بالنسبة للإنسان، فيذكر القرآن بعض العناصر الجوهرية فيه مثل:

ـ توضيح طبيعته الثنائية، روحية ومادية، المجسّدة في مفهوم الفطرة مؤكداً نزعة التديّن لدى الإنسان وسعيه الدّائم لتجاوز وضعيته المحدودة على وجه الأرض كما أكدّت ذلك الأنثروبولوجيا الحديثة.

ـ تكريمه دون المخلوقات الأخرى بالعقل والوعي واللّسان والكتابة وتسخير الأرض وكائناته والكون له وإسباغ النّعم اللامتناهية الباطنة والظاهرة لصالحه وفوق ذلك منحه حرية التصرف.

ـ إبراز جوانب القوّة والضعف في الإنسان وتبيان ميولاته المتناقضة وخصائصه النفسيّة، كل ذلك تمهيدا لتحميله أمانة الاستخلاف الثقيلة على الأرض كامتحان له بعد توضيح "دفتر الشروط" المجسّد في تعاليم الدّين الإسلامي الذي يشرح العقيدة الصحيحة، يهذب النفوس ويقوّم الأخلاق والسلوك كما أوضحه الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [1]، ثمّ يقدّم العبادات والشرائع المناسبة. أمّا بالنسبة للكون فيبيّن القرآن أنّه من صنع الله وحده، ويتطرّق إلى مجالاته الرّئيسية مبيّناً عظمة الخلق ومواطن الإتقان والإبداع والتناغم والجمال فيه، مظهراً سننه وقوانينه التي تجعله مسيّراً في حركاته وليس مخيراً داحضاً بذلك كل الأساطير التي حيكت منذ فجر البشرية حول الطبيعة الخرافية لنشأة الكون ودور الآلهة أو الشياطين أو الأبطال أو الحيوانات الأسطورية الضخمة فيه.

انكشفت مظاهر الإعجاز القرآني تدريجياً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ..﴾ [2]، وقوله صلى الله عليه وسلّم متحدّثاً عن القرآن: "ولا تَنْقَضي عَجائبُه" إلى يوم القيامة.

انحصر الإعجاز القرآني في البداية في الإعجاز البلاغي إذ عجز البلغاء والأدباء العرب عن الإتيان بمثله. أخذت هذه المسألة منعرجاً جديداً بفضل

1- سورة الشمس، الآية 9 و 10. - 2. سورة فصّلت، الآية 53.

التطورات العلمية المذهلة في القرنين الماضيين فتأكد المصدر الإلهي للقرآن في مجالات علمية متعددة: الطب وتخصصاته الفرعية كعلم الأجنّة، علم الفلك، علم البحار، الجيولوجيا، علوم التغذية، علم النبات...إلخ.

في ضوء هذه الصيرورة فلا مانع أن تنجلي مظاهر أخرى للإعجاز القرآني في فترات زمنية محدّدة لاحقا اختارها الله وفق خطة محكمة تراعي مراحل تطور المعرفة الإنسانية شريطة أن يتوفر في المجال الجديد شرط أساسي ورد في تعريف الإعجاز القرآني ويتمثل في "إخبار القرآن عن قضايا أثبتها العلم المعاصر وثبت عدم معرفتها في عصر النبوّة بالوسائل المتوفرة آنذاك". إنّ هذا الشرط يتّسع لكل فروع المعرفة بما فيها العلوم الاجتماعية.

إنّ هذه المسألة تقتضي توفر شروط الدراسة الموضوعية الدقيقة داخل حقل معرفي معيّن مع التمييز الدّائم بين مصدر وأهداف ومستوى الفهم أو التأويل المسموح به ونسبة الدلالة المطلوبة في كل من القرآن كمصدر متسامٍ والحقائق العلميّة المضيئة وذات النسبية في آن واحد؛ إن استجلاء الجانب الإعجازي في القرآن في مجال ما من المعرفة سيخضع حتماً في المستقبل لمسار مختلف وسيظهر في أشكال مغايرة لشكل وظروف بلورة الإعجاز القرآني البلاغي أو العلمي، وذلك الطرح قد يتحقق إذا ما برز جانب من الإعجاز القرآني تثبته الدراسات الاجتماعية، علماً أنّ ذلك الطرح لا يمنع احتمال وجود علاقة ما بين مجالين، فمثلا الآية 30 من سورة الأنبياء: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾ تظهر إعجازاً بلاغياوإعجازاً علمياً في علم الفلك في آن واحد.

II. الدّيانات في ضوء الدراسة المقارنة للأديان والأنثروبولوجيا

قبل أن نتطرق إلى كيفية مواجهة القرآن للعقائد الوثنية وتبيان مظاهر الإعجاز في منهجيته، يجدر بنا أن نقدم بإيجاز تاريخ تطور المعارف بخصوص الدّيانات القديمة إلى غاية بروز التخصصات الحديثة.

إنّ عقد المقارنة بين الأديان بدأ منذ القدم خاصة لأغراض دعويّة لإبراز أفضلية عقيدة على أخرى حيث تعدّ إحدى الاهتمامات الرئيسية لعلم اللاهوت أو علم الكلام.

كان للمسلمين فضل السبق في الدراسة المنهجية الموضوعية لمقارنة الأديان من خلال كتب "الشهرستاني" و"ابن حزم الأندلسي" حول الملل والنحل.

أمّا الأوروبيون فقد قاموا بعمل مماثل لاحقاً في عصر النهضة بعد بروز الاستشراق، اعتمدوا خاصة على الوثائق المكتوبة المقتبسة من نصوص الكتب المقدّسة ومن شروحات ومؤلفات تاريخية وأدبية وشهادات أهل الملّة أو مسافرين ...إلخ.

كانت المعلومات لا تتجاوز عادة حدود الدّيانات الحيّة وبعض الدّيانات الميّتة مثل اليونانية أو الرومانية ... الموجودة في العالم القديم أي محيط البحر الأبيض المتوسط، فمثلا لم تكن هناك دراسة حقيقية حول الدّيانات الهندية إلاّ من خلال كتاب **البيروني** مؤلّف "كتاب الهند الكبير" الذي ترجم إلى اللّغة الإنجليزية في بداية القرن التاسع عشر علما أنّ الدّيانة الهندية من الدّيانات الأساسية ماضيا وحاضرا.

1 ـ تطور مناهج الدّراسات حول الأديان

لقد توسع فضاء الدراسات حول الأديان بصفة معتبرة بعد ظهور تخصصات جديدة في العلوم الاجتماعية، توظّف مناهج بحث جديدة كالملاحظة واللّسانيات والحفريات الأثرية ودراسة ثقافة الشعوب مستعملا التسهيلات التي يمنحها التطور التكنولوجي في مجال النقل والدراسة والتنقيب. فرغم

غياب الكثير من المعلومات الدقيقة والوثائق وصعوبة التأويل فإنه يمكن الاعتماد اليوم على معلومات موثقة كافية تسمح برسم خريطة عالمية للأديان السائدة أو الماضية من خلال عرض عقائدها وطقوسها ومظاهرها، الأمر الذي يسمح بتصنيف المعتقدات الوثنية خاصة تلك المتعلّقة بالآلهة ذات الوظائف المتخصصة والأصنام التي تمثل أحد المواضيع العقائدية الأساسية المعالجة في القرآن إلى جانب عقائد أهل الكتاب.

وفي سياق شرح كيفية لجوء الإنسان إلى الاعتقاد بالآلهة، تفيد الأنثروبولوجيا الدّينية معتمدة على علوم مجاورة أنّ الإنسان يعدّ كائناً رمزياً حيث تتمثل الحياة الدينية بالنسبة إليه في كيفية التعامل مع المقدّس من خلال تصوره الرمزي للإله والكون والإنسان وفق أصناف ذهنية. تتميز البنية العقلية للمجتمعات التقليدية بإضفاء القداسة على الكون ومظاهره المختلفة؛ تنسج قصّة الكون في أساطير غامضة لا عقلانية عكس الإنسان المعاصر الذي توصل بفضل العلم إلى فهم العديد من الظواهر الطبيعية.

تلك الأساطير لها وظيفة طمأنة الإنسان من خلال شرحها لكيفية تكوين الكون أولاً، ثم شرح دور كل المظاهر الكونية كاللّيل والنّهار، الأرض والسماء، النجوم، البحار، الأنهار، النار، الأشجار، الكوارث الطبيعية... وفي هذه الأساطير تلعب الآلهة دوراً أساسياً في نشأة العالم وتسيير إحدى مجالاته كإله الشمس، إله المطر...إلخ.

2 - النظريات المتعلّقة بتصنيف الآلهة المتخصّصة

قبل أن نتطرق إلى منهجية القرآن يجب أن نوضّح وظيفة الآلهة المتخصصة وكيفية تصنيفها إلى فئات كبرى قابلة للتحليل. يتميّز إذن الإله بالذات المستقلة سواء كان موجوداً خارج إدراك الإنسان في السماء مثلا أو مجسّداً على الأرض على شكل تمثال أو صنم. تسمّى تلك الآلهة "بالآلهة المتخصصة" (dieux spécialisés) ذلك أنّ كبير الآلهة أو الإله الرّئيسي قد وكّل لها مجالا معيناً في الكون للتسيير فمثلا عند اليونان، إلى جانب كبير الآلهة Zeus (Jupiter عند الرومان)،

هناك إله الحرب Mars وإله النّار Pluton وإله البحر Poséidon إلى جانب إله الخصوبة وإله الرّياح وإله المطر وإله الموت....

يذكر أنّ هذا النموذج المكوّن من إله علوي و مجموعة من الآلهة العلوية وآلهة ثانوية، يوجد تقريباً في كل الحضارات: البابلية، الآشورية، الفرعونية، اليونانية، الرومانية، الهندية وحتى الإفريقية... ويمثّل تصنيفاً أوليا.

يتبيّن إذن أنّ الترتيب داخل معبد الآلهة (le Panthéon) في ديانة ما ليس عشوائياً كما يبدو في أوّل وهلة؛ أضف إلى ذلك أنّ ترتيب الآلهة مرتبط حسب بعض الباحثين بتطور المجتمع ونمو الفكر الإنساني كما يعكس طبيعة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فمثلا في المجتمعات الزراعية القديمة هناك تركيز أكثر على آلهة الزراعة والخصوبة والأنهار... وفي هذا السّياق توصّل العالم "دوميزيل" (Dumézil 1898- 1986) إلى إيجاد مبدأ تصنيفي إضافي وضعه في إطار نظريته المشهورة "التقسيم الدّيني والاجتماعي الثلاثي في الحضارات الهندوأوروبية".

La Théorie de la Tripartition religieuse et sociale dans les civilisations indo-européennes[1].

يفترض بعد دراسة معمّقة للدّيانات والتنظيم الاجتماعي والسياسي في تلك المجتمعات أنّ النظام السياسي والاجتماعي يخضع للمنطق السائد في مجال المقدّس، بمعنى أنّ المراكز السياسية والمراتب الاجتماعية تحدّد في إطار ديني وأنّها تعكس الترتيب الموجود في السماء بين الآلهة وفق المعتقد السائد. فوجد أنّ نظام الكون حسب اعتقادهم ينقسم عموما إلى ثلاثة مجالات تتحكم فيها ثلاثة أصناف من الآلهة، ويقابله في الأرض نظام اجتماعي طبقي يرتكز على ثلاثة وظائف:

---

1. Dumézil, George : *Jupiter, Mars, Quirinus*, Paris :1948, et : *Aspects de la fonction guerrière chez les indo-européens* , Paris, Ed Puf, 1956

ـ المجال الرئيسي في السماء الذي تقابله الوظيفة العليا في المجتمع فهو السلطة والملك ويحتكرها الإله الأعلى في السماء والملوك وطبقة رجال الدّين في الأرض.

ـ والوظيفة الثانية فيتعلّق الأمر فيما يخصها بالمجال العسكري ويمثلها إله الحرب الذي يقابله في المجتمع طبقة الجند لأهمية الحرب في مصير الأمم وكذا للحفاظ على النظام.

ـ أمّا الوظيفة الثالثة فهي مرتبطة بخلق الثروات والعمل فهناك آلهة مكلّفة بالخصوبة أو الثروة أو الزراعة أو الأنهار أو المطر أو الإنجاب ويقابلها في المجتمع الطبقات المنتجة كالفلاحين والرّعاة والتّجار والحرفيين.

هناك من الباحثين من لاحظ في هذه الديانات أهمية الآلهة المرتبطة بالخصوبة، سواء بالنسبة للبشر أي الإنجاب أو بوفرة المنتوج الزراعي، ولهذا سأركز على ذلك بالنسبة للرّد القرآني.

يتبع...